الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان الجزائر

كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة الثالثة فنون درامية/ السداسي الخامس

مقياس: نقد مسرحي حديث ومعاصر

المحور الثاني: المناهج النقدية الحديثة في المسرح

المحاضرة رقم 04 بعنوان:

" نظرية توماس الأكويني وتوظيفاتها المعاصرة"

يعد القديس توماس الأكويني أحد أبرز منظّري الفن في أواخر العصور الوسطى، خلال الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر إلى الرابع عشر، وهي مرحلة شهدت تحولات اقتصادية واجتماعية كبرى مع بدايات انتقال الملكية الإنتاجية من الإقطاع إلى عصر النهضة. انطلق الأكويني في تقييمه للأعمال الأدبية والفنية من منظور متعدد الأبعاد، يجمع بين البعد التاريخي والاجتماعي والنفسي، مما جعله من أوائل من أسّسوا لمنهج نقدي متكامل.

وقد تميّز الاتجاه النقدي الذي ارتبط باسمه بوصفه نظرية قروسطية متفردة، إذ اعتمد في تقويم الإبداع على ثلاثة محاور رئيسية: التاريخي، والاجتماعي، والذاتي أو النفسي، وهي أبعاد تركت أثرها العميق في تطور النقد الحديث، لتتجلى لاحقا في نظريات النقد الاجتماعي، والنفسي، والجمالي، والتاريخي، والموضوعي.

ورغم انتماء فلسفة الأكويني إلى العصور الوسطى، فإنها بدت أكثر قربا من الفلسفة الحديثة، إذ اتسمت بواقعية تركّز على الإنسان والواقع المعيش أكثر من انشغالها باللاهوت الخالص. ويُعد الأكويني من أعظم فلاسفة المسيحية، وقد ميّز بين العقل والإيمان، فالعقل – في نظره – أداة المعرفة والتأمل، بينما الإيمان قائم على الوحي، لكنهما لا يتعارضان بل يتكاملان في سعي الإنسان نحو الحقيقة. وقد سعى الأكويني إلى التوفيق بين المعتقدات المسيحية والفلسفة الأرسطية، مؤمنا بأن العقل والإيمان وجهان لمسيرة روحية واحدة، وأن معرفة الله ممكنة بالعقل، بينما الخلاص لا يتحقق إلا بالإيمان.

ومع تطور الفكر في القرن الثامن عشر، اتجه الفلاسفة إلى نقد العقل والدين والنظم الاجتماعية والسياسية، وهي اتجاهات تجد جذورها في المقدمات الفكرية التي أرساها الأكويني، خصوصا في الربط بين الفكر والعقيدة، والمجتمع والفرد. وقد مهّد هذا الأساس الفلسفي لظهور التيارات النقدية اللاحقة التي درست الدين والفكر والمجتمع من زوايا متعددة، كما فعل ماركس وإنجلز في نقدهما للبناء الاجتماعي والفكري.

وبصفته تلميذا لألبرت الكبير في جامعة باريس، رأى الأكويني أن وجود الله يمكن إثباته بالعقل، غير أن تفاصيل العقيدة – كفعل الخلق والتجسد – تبقى أمورا إيمانية لا تُدرَك بالمنطق. فالله عنده هو وحدة الوجود والجوهر، ومن هذا المفهوم انبثقت معظم براهين إثبات وجوده. كما تبنّى الأكويني مبدأ القانون الطبيعي، مؤكدا أن العدالة لا يمكن أن تُحدَّد بالقوانين الوضعية المتغيّرة وحدها، بل يجب أن تستند إلى معايير ثابتة مستمدة من طبيعة الأشياء.

وتُعدّ فلسفة الأكويني واقعية انتقائية الطابع، استلهمت الأرسطية والرواقية والأفلاطونية المحدثة والمسيحية، لكنها قدّمت رؤية عقلية متميزة، تتجلى في موقفه من مشكلة "الكليات(Universals) "، حيث خالف أفلاطون في اعتبارها حقائق قائمة بذاتها.

وقد أثّر فكره تأثيرا بالغا في النقد المسرحي الحديث، من خلال تقسيمه للعلوم الفلسفية إلى قسمين: النظري والعملي؛ يشمل الأول العلوم الطبيعية والرياضية والميتافيزيقا، أما الثاني فيضم الأخلاق والاقتصاد والسياسة. كما كان المنطق عنده الإطار الذي يحتضن جميع العلوم، معتمدا في ذلك على منهج أرسطو القائم على الاستقراء والاستنباط.

وفي فلسفته الميتافيزيقية، درس الأكويني الموجودات في تسلسلها الوجودي من الله، المبدأ الأول، مرورا بالملائكة، وصولا إلى الكائنات المادية. ورأى أن الصورة هي ما يمنح الشيء هويته، والمادة هي مبدأ تفرّده.

ويُعدّ عمله الضخم 'الخلاصة اللاهوتية' (Summa Theologica)من أعظم مؤلفات العصور الوسطى، إذ قدّم فيه رؤية شمولية للكون والإنسان والحياة، قائمة على الانسجام بين الدين والعقل والطبيعة، وهو الإطار الفكري ذاته الذي استوحاه دانتي في *الكوميديا الإلهية*، حيث تجسّد التداخل العميق بين اللاهوت والفلسفة والأدب والعلوم.

ومن هذا المنطلق، برزت في فكر الأكويني الأبعاد الثلاثة الآتية:

1. **البعد التاريخي:** منح الأكويني العقل مكانة مركزية في بناء المعرفة اللاهوتية، مع اعترافه بحدوده، فهو قادر على إدراك الخير والحق من خلال التجربة والإشراق الإلهي، لكنه لا يتجاوز حدوده الطبيعية. والعقل عنده هبة إلهية، كما أن الإرادة حرة، ولهذا فالإنسان مسؤول عن أفعاله لأنه يملك حرية الاختيار.

2. **البعد الاجتماعي:** ينظر الأكويني إلى الإنسان ككائن اجتماعي بطبعه، يعيش في مجتمع تسوده علاقات التعاون وتقسيم العمل. ويرى أن النظام الملكي هو الأمثل للحكم، لأنه يحقق وحدة القرار، شرط ألا يتحول إلى استبداد. وفي هذا السياق يفرّق بين "العبودية الطبيعية" التي تنظم العلاقة بين السيد والعبد، و"العبودية القسرية" التي تنفي إنسانية العبد وتُعدّ شرا يفوق الموت.

3. البعد النفسي: يعرّف الأكويني النفس بأنها كمال الجسد العضوي، أي إنها صورته التي تمنحه الحياة، وفي الوقت نفسه جوهر مستقل يضمن خلودها. فهي المبدأ الأول للحياة، غير مادية في جوهرها، والعقل فيها غير مرتبط بالجسد، إذ إن إدراك الماهيات المجردة فعل روحي خالص لا مادي. وهكذا يرى الأكويني أن القدرات الجسدية محدودة بالنمو والإحساس، بينما القدرة العقلية خاصية روحية تميز الإنسان عن سائر الكائنات.

المكتبة البيبليوغرافية:

- توما الأكويني: الخلاصة اللاهوتية، ترجمة بولس عواد.
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط.
- عيد الدحيات، النظرية النقدية الغربية: من أفلاطون إلى بوكاشيو.
- دومينيك فولشيد، المذاهب الفلسفية الكبرى.